

0368.02.2386

"A Night of Revelry for 5 June", a Book Review, Birzeit University

Issued by the Department of Arabic Language at Birzeit University, this document contains a review of a play by Saadallah Wannous titled "A Night of Revelry for 5 June".

حفلة سمر من أجل هـ حـ زـ سـ ران

للكاتب السوري سعد الله ونوس

لقد هزمتنا . هذه هي الحقيقة الصخرة . التي تصدم بها ذواتنا .
فتتفجر وتتناثر الأسئلة الحادة فينا ، ومن حولنا . من نحن ، ولماذا
هزمتنا ، وما العمل ؟
على أن هناك من يحاول أن يستغل الهزيمة ، أن يستلج الصخرة ، أن
يحتوي الموقف الفاجع لمصلحته ، فيجعل منه مجرد استعراض ممتع ، مجرد
حفلة سمر ، يبرز فيها كفاءته الخاصة ، ويتجنب بها أن يسأل نفسه الأسئلة
الصعبة ، أو أن يجد نفسه مضطرا إلى البحث عن إجابة عليها .
وهكذا ... يظل علينا من منمة المسرح الرسمي ، مخرج المسرحية التي
لم تبدأ بعد . لقد جاء الجمهور إلى هذا المسرح الرسمي لمشاهد مسرحية
"مفير الأرواح" من تأليف الكاتب عبد الغني الشاعر ، والليلة ليلة الافتتاح .
وتحين الساعة ، ولكن المسرحية لا تبدأ . ويمضي الوقت في الانتظار . ماذا
هناك ؟ وتمل القاعة الانتظار . يمل الجمهور ، ويعلن عن نفاد صبره .
عن احتجاجه . وهكذا تبدأ المسرحية باحتجاج الجمهور . وهنا يطل علينا
المخرج معلنا أسفه للتأخير . ويأخذ في تفسير الأمر . أن المشكلة هي مشكلة
النص . البحث عن نص . لقد اشغل المخرج بالكاتب عبد الغني الشاعر ليكتب
له نصا عما حدث ، يقصد الهزيمة . ذلك أن ما حدث - على حد تعبير المخرج -
هو "قرعة ممتازة لكي نمنع عملا ممتازا" . وتجسيدا لما دار من حوار بين
المخرج والمؤلف ، يسارع المخرج لاحضار ممثل لاداء دور المؤلف . وهنا
يرتفع صوت من القاعة . انه المؤلف نفسه " ليس ضروريا ان يتقمصني ممثلون
ما دمت موجودا هنا . ان المؤلف موجود هنا ... في القاعة . يتحرك منها ،
منا ، إلى المنصة . وهكذا لا يصبح المؤلف وحده موجودا هنا ، بل تصبح
نحن جميعا موجودين هنا . ويصبح ما يجري في المنصة والقاعة مختلطا . يصبح
وجودا حقيقيا ، يصبح هنا والآن . ويعود المخرج إلى مواصلة حكايته . فيعرض
لنا خيوط المسرحية التي كنا على وشك ان نشاهدها . الحرب تعلن .. صفارات
الإنذار .. اشخاص يتحركون في كافة الاتجاهات . انفجارات . أصوات طائرات ..
طفل يضيئ بين الزحام ، يتفجر باكيا .. لا أحد ينتبه إليه ، يخلو المسرح
تماما إلا من الطفل . يتفجر المسرح حوله بأصوات ، أبرز طائرات ، صفارات
ناشئة ، انفجارات . ولا تلبث القاعة ان تقاطع المخرج وهو يواصل تقديم
عناصر مسرحيته . أية خرافات شروي ؟ .. هذه ليست الحرب التي نعرف ، نحن
عشنا الصورة الواقعية . وبعد لأي يواصل المخرج حديثه . أربعة جنود يدخلون ..
ينتظرون العدو .. يحملون بحياتهم ، بأطفالهم ، بنسائهم . شظايا .. شظايا ..
ويسقط الجنود ، ويتحجرون في أماكنهم . وينتقل إلى قرية من القرى الأمامية .
عمال المسرح يدخلون ويطلقون ديكور قرية يصفها المخرج . رجال القرية يحتدم
الخلاف بينهم . المختار يقرر الهجرة متذعرا بالحكمة . عبد الله يصمم على
البقاء والمقاومة . يتهم المختار ومن معه بالجين والخيانة . ينتقل عدد من

اهل القرية الى جانب عبد الله . عبد الله يقرر ان الاعراض هي القيود الشبي
تحد من حركتهم . فلننتحرر منها . يمشي امام رجاله ، يذهبون فيقتلونه
نساءهم . يقترب . تتساقط قنابل النابالم . الذعر . الجنود الموتى يتكلمون .
لن نغادر الارض ، سنبقى ، سنظل نحرس الارض . بقية اهل القرية يهاجرون
مع المختار . عبد الله ورجاله يظلون مع الجنود . ومع رحيل القرية تتعالى
موسيقى مؤثره ويرتفع نشيد جماعي وينسد الستار . وينهي المخرج كلماته
قائلا : " تلك كانت فكرتي لهذه السهرة ، وحول هذه الفكرة كتب المؤلف
عبد الغني مسرحية "مغير الأرواح" التي جئتم لتشهدوها . ولكن .. بعد
انجاز العمل جاء المؤلف عبد الغني قبل ساعات من بدء السهرة ليقول انه
يرفض بأي شكل من الاشكال عرض مسرحيته ... ويهددنا بارتكاب كل ما يتخيله
المرء من حماقات . فعلة قذرة ، فعلة فيها ازدراء للفن . على ان عبد الغني
يغمر رفضه "حين تكون رائحة الفم كريهة ، ينبغي ألا يتكلم المرء" . ولهذا
لا يجد المخرج حلا للخروج من هذا المأرق الا ان يقدم شيئا بديلا عن المسرحية
التي يرفض المؤلف تقديمها ... الفرقة الشعبية تقدم غناء الريف ورقصاته .
أتمنى لكم سهرة طيبة مع غنائنا ورقصنا الشعبيين . ولكن .. قبل أن تبدأ
الفرقة ، يتقدم من القاعة فلاح . يتأمل الصورة المعلقة في المسرح التي
تمثل القرية ثم يسأل المخرج "ما اسم هذه القرية يا محترم؟" . ويسارع ابنه
لايمداه عن منحة المسرح . ولكنه يواصل تقدمه وسواله ، بل يتجسس الى
صديق له في القاعة متسائلا كذلك : "يا أبا فرج .. ألم تتذكر فيمتنا؟"
ويجن جنون المخرج ، يحاول أن يوقفه عن الاسترسال دون جدوى . ويتحسرك
الفلاح عبد الرحمن ومعه صديقه أبو فرج وابنه عزت الى المنصة يتأملون صورة
القرية ويستعيدون ذكرياتهم الحقيقية ، هجرتهم الحقيقية عندما اندلعت
الحرب . صورة أخرى صادقة بسيطة تختلف تماما عن الصورة الدرامية المفتعلة
التي اقترحها علينا المخرج . ما كانوا يعرفون شيئا عن الحرب . لم يحدثهم
احد . تساقطت الاخطار ، فخرجوا ، هاجروا ، وتناوبت الحكايات البسيطة
التي صاحبت هجرتهم . رينب التي تريد أن تعود الى القرية لترى ما اذا كان
الشباك مغلقا أو غير مغلق . وأم غزالة التي تولول طوال الطريق على
دجاجتها الحاضنة التي تركتها وراءها . ومحمد علي دبا الذي حمل حماره
كل ما يملك حتى فخارة الملح . ثم سرعان ما أخذ يلقي في الطريق بكل شيء .
حماره لم يستطع مواصلة الطريق بكل هذه الاحمال . عبد الرحمن يواصل مع
صديقه أبي الفرغ حكاياته . المخرج يتدخل بينهما ليوقفهما حتى تبدأ الفرقة
الشعبية . أحد المشاهدين في الصف الأول من القاعة ، يستدعي بعض الرجال
ويوزعهم على الابواب والصفوف . بعض المشاهدين في القاعة يسألون عن عبدالرحمن
عن سبب هجرتهم . أما كان من الأجدر ان يبقوا في قريتهم ؟ ويبدأ حشوا
عبد الرحمن والقاعة . انهم لا يعرفون ... لا أحد يكلمهم ، لا يفهمون هذه
الحرب . "لا أحد يكلمنا .. لا أحد يجيب . والأسئلة تتجمع كالشوك في السنتنا" .
القاعة تنقسم بين مدافع عن عبد الرحمن ، عن مملك القرية ، عن اضطرابها
للهجرة ، وبين ناقد يسائله ويسائل القرية : لماذا لم تظفوا في قريبتكم
تقاومون ؟ ولكن كيف يظلون ، وسادا يقاومون ؟ "لا أحد يكلمنا عما يجري
حولنا" هكذا يقول عبد الرحمن . رجل واحد فقط زارهم . فلاح ، جاثع ، يحمل
سندقيه . كان ما يؤوله واضحا . وكان يعرف ما ينبغي عمله . ولكن ظل بينهم

فترة ولم يعد . ويتسع الحوار ، ويمتد حتى يشمل القاعة والمنصة معا . الفيتناميون لا يغادرون ارضهم ، انهم يخطون اجسادهم الى الارض . ولكن اين نحن من الفيتناميين . الفيتناميون يفعلون ذلك لانها ارضهم ، ولانهم يعرفون ان لهم هوية ، وليسوا اذاعات كاذبة ولا صحفا شاذية . القاعة والمنصة تتحولان الى قاعة اجتماعات . وتتفجر الماساة . وتتناثر الاسئلة الفاجعة . نحن شعب مهزوم . قالوا لنا من اجل المصلحة الوطنية اقطعوا ألسنتكم . من اجل المصلحة الوطنية لا تسمعوا الا ما نقوله نحن . من اجل المصلحة الوطنية ارموا عقولكم . وتتداخل القاعة والمنصة لا بالحوار فحسب بل بالناس كذلك .. يتكاثرون من ينتقل اليها . كان ابراهيم رجل تقدم ليتحدث عن الجغرافيا . ليحكى حكاية مدرس جغرافيا . خريطة اخذ يشرح معالمها لتلاميذه منذ عشرين عاما ، وهم لاهون ، ناشمون . وأخذت الخريطة تتبرأ ، تتمزق ، وهم لاهون ناشمون . تتمزق قطعة قطعة وهم لاهون ناشمون . قطعة من أعلى ، لواء الاسكندرونة . هوامش من الشرق .. امارات الخليج .. سلخة من الطرف الاوسط .. في المدخل .. في الصدر .. فلسطين . من الوسط الجنوبي .. سينا .. من الوسط الغربي .. الضفة الغربية . من الوسط الشمالي .. مرتفعات الجولان . من كل الجهات . الورقة اصبحت غربالا . اصبحت اشـبـلا . "احذروا فقد تتمزق يوما النقطة الصغيرة التي عليها شنامون وتساكنون وتمارسون علاقاتكم الصغيرة" . ان الرجل هو المدرس نفسه يحكي حكاية حياته الفاجعة . ويرداد الموقف تفجرا واحتداما . ما العمل ؟ وينشئ ندا حار يطالب بالسلاح . ويمرغ المخرج : مؤامرة .. مؤامرة يشارك فيها المؤلف بغير شك . وتتدفق من القاعة مظاهرة تنشد :

يا ولد يا ابن المرعوبة
دع أمك واطلب بارودة
البارودة خير من امك
عشرة منها تحمي بلدك

ويشتعل الموقف بالحماس والحرارة . وفجأة ينهض رجل يلبس شياها رسمية من الصف الامامي . يتجه الى المسرح ، يتحرك معه رجال يخرجون مدساتهم ، يوجهونها للجمهور ، وعلى الاخص للعناصر التي اشتركت في الحوار . الرجل يصعد المنصة : "كفوا جميعا .. توقفوا .. فليتوقف كل هذا .. اقتحسوا اذن ان النظام انتهى . وان البلاد اصبحت فوضى" . ويتهاشم المشاهدون : "جلالة .. فخامة .. رئيس .. السيد رئيس .. ممنوع الخروج ... وها نحن محاصرون . ويواصل الرجل الرسمي كلامه : "اقبضوا على جميع العناصر المشتركة في هذه المؤامرة الزنيمية" . ويلتفت الى المؤلف عبد الغني الشاعر قائلا : "الا تقدر الظروف التي تمر بها بلادنا العظيمة؟" . ويواصل كلامه : "ان اعداء الشعب يزدادون وقاحة وشراسة اليوم بعد اليوم ... ان الاستعمار وزبانيته من الكفرة اعداء الشعب والله ، يتخيلون انه صار ممكنا النيل من نظامكم العظيم الذي أفرزته آلاف من سنين النضال واجيال من الضحايا والمكافحين" . ويمفق المخرج ويتبعه عدد من المتفرجين . ويعلق عبد الرحمن على ذلك هامسا : "يا سبحان الله ، انه يتكلم كالراديو" . ويواصل الرجل الرسمي كلامه : "آيتها الجماهير الصامدة ، هذه سهرة عابرة تأتي فتؤكد من جديد ان الاعداء يندسون بيننا .. يتقنعون بمختلف الاقنعة .. احذروا المتآمريين والخونة . وافضحوا مروجي الشائعات الخبيثة . وابقوا عيوننا لا تغفل ولا تنام . ان مسيرتنا

المقدسة لن تتوقف مهما تكاثرت الخفافيش وتعددت في وجوها المصعب . وقبل
اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . فالى الامام ايها الجماهير ..
الى الامام .. الى الامام " . ويلوح رجاله بالمسدسات قائلين للجمهور : " يمكنكم
الآن ان تنصرفوا . اياكم والفوضى . اخرجوا بهدوء " . ويستلقي الرجل الرسمي
المعتقلين قائلًا لرجاله : خذوهم لنرى ما يخفون " . المشاهدون مبهوتين يخرجون
بخطوات متلكئة من القاعة . ويستمر حوارهم الهامس في الأروقة وعلى السلالم .
ولا ينزل ستار ، لانه لم يرتفع ، وتنتهي المسرحية ، ولا ينتهي الواقع
المر الذي تغضه في الحياة ، من حولنا ، وفيها .

لعل هذه المسرحية - بغير تحفظ - ان تكون انضج مسرحياتنا العربية
تعبيرا عن محنة هزيمتنا ، لا في . اقع الأرض العربية بل في واقع الوجدان
العربي ، وفي واقع الانظمة العربية كذلك . ولعلها - بغير تحفظ كذلك -
ان تكون من انضج مسرحياتنا العربية المعاصرة عامة سواء من حيث البناء
الفني او المضمون . ان هذه المسرحية هي صرخة نقد وتعبير واحتجاج بالغة
النصاعة والصدق والجدية والذكاء ، في مواجهة واقعنا العربي المريع . ونحن
مع هذه المسرحية لا نعيش ايهاا مسرحيا ، او نشاهد عملا فنيا يشاكل الواقع ،
بل نعيش الواقع نفسه بكل توتراته الحادة ، واقع فجيعتنا ، واقع محتنتنا ،
واقع هزيمتنا ، واقع ضميرنا المأزوم . في حياتنا من يحاول ان يجعل من
الهزيمة وسيلة لاستعراض مسرحي فني ممتع . الهزيمة عنده " فرصة ممتازة لعمل
مسرحي ممتاز " . وهناك من يحاول ان يجعل من الهزيمة وسيلة لغرض سلطانه باسم
المصلحة الوطنية . ولكنه لا يفعل شيئا من اجل المصلحة الوطنية . ان الكذب
والادعاء والاستعلاء والشعارات الطنانة الرنانة الجوفاء ، والعجز عن الفعل
الثوري ، عن ممارسة الديمقراطية الحقيقية ، عن التعبير الاصيل عن ارادة
البسطاء والتحرك الجاد الامين من اجلهم وبهم ، هو جوهر الهزيمة ، وهو
الهزيمة نفسها .. هو امتدادها في حياتنا .. في وجداننا . فعندما تصاعد
المسرحية بالموقف الفاجع الى الفعل الثوري ، الى الدعوة الى السلاح ،
لمباشرة معركة التحرير ، تصدنا هذه الحقيقة البشعة : ان السلاح يوجه
الى صدور من يطالبون بالسلاح من اجل التحرير ، ويتم هذا باسم المصلحة
الوطنية . وهكذا يصطدم طريقنا الى معركة التحرير بالسلطة العاجزة عن
قيادة معركة التحرير . ليس العجز في الشعب ، في الجماهير ، وانما في
السلطة . وتنتهي بنا المسرحية ونحن محاصرون ، لا من اعدائنا الذين يحتلون
أرضنا فحسب ، وانما - يا للأسفة - من هؤلاء الذين يحكموننا . ولذلك لا
تنتهي المسرحية بنشيد حماسي . فماذا يفعل الحكام كل يوم الا اصدار الاناشيد
الحماسية الرسمية ؟ ولا تتورط المسرحية في نهاية تطهيرية تعويضية ، نستبدل
فيها الاحساس بالهزيمة الواقعية ، بالاحساس بنصر زائف ، بل تنتهي المسرحية
بوضعنا جميعا في عربة اعتقال ، في حصار ، يضيق الخناق علينا . هذا هو
واقعنا المر . ولكن من ادراكه ومعاشته ومعاناته ، ينفجر وعينا كذلك
بما ينبغي ان يكون . لا نخرج منتعشين منتعشين راضين عن انفسنا لكثرة ما
بدلناه من جهد في الفناء الحماسي ، ولكننا نخرج باحساس عميق بالقهر ،
بالقضب ، بالتمرد ، وبفكر يشتمل بالثورة .

والمسرحية لا ترمز ولا تنفر ، بل تشير وتتكلم بوضوح مباشر مخيف
وبواقعية خشنة مطلقة . ورغم هذه المباشرة وهذه الخشونة ، فاننا لا
نعتقد أبدا مذاق الفن ، مذاق الشعر ، حلوة الخلق ، في معاشتها . لاننا

لا نفقد أبدا مذاق الصدق . ولا نسقط أبدا في شرسة ، بل نعيش الواقع في
أطار مركز مصفى ، في خلاصة الخلاصة ، تتحرك وتتدفق أمامنا ، حولنا ،
بنا ، فينا . الحوار يتحدر كالشلال . والأحداث تتراكم وتتراكم حتى نقيم
جبال الفجعة فوق اكتافنا . والشخصيات تخرج منا ، وتتحرك بنا ، وتحكي
حكايتنا . ولهذا لا نكاد نلتقط أنفاسنا ، ولذا كذلك ما كان من الممكن
أن تتمزق إلى فطين أو ثلاثة فصول . ما كان من الممكن أن نتسكع في
استراحة ، حدث شلال يغمرنا لأنه ينبثق من واقعنا الحي بكل عنفه وقوته
وخشونته . ولكنه - كما ذكرت - واقع مصفى ، واقع جوهري ، واقع اشكالي
مركز ، يحمل القسمة الأساسية بغير شرسة أو فضول . وهكذا من شدة
المباشرة الواقعية الصادقة العميقة ، تشتد حرارة الفن المتوتر الكبير .
هل معنى هذا أنها مجرد مسرحية لنا ، مسرحية موقوتة بظرفنا وبنا ،
مسرحية مناسبة على ضخامة هذه المناسبة واتساعها ؟ لا ... أنها تمثل ما
هو أكبر من مناسبتها . وستظل تمثلها . أنها تمثل الصراع الأبدى بين المصدق
والكذب ، بين الخوف والجسارة ، بين الاقتعال والحقيقة ، بين القهر
والبطولة ، بين البطولة الحقيقية والبطولة الزائفة ، ستظل دفاعا عن
إنسانية الإنسان ، وستظل جزءا عزيزا من تراشنا المسرحي العربي وعلامة
من علاماته .

هذا عمل فني مشرف حقا ، شكلا ومضمونا . يكشف في مؤلفه الكاتب
السوري عبد الله ونوس ، جسارة فكرية ، واقتدارا تعبيريًا ، وإصالة
فنية . ما أكثر الكنوز الفنية التي نتوقعها لمسرحنا العربي من موهبته
الخلابة .

